سكان شمتو وحياتهم الدينية
في العهد الروماني من خلال النقائش

مصطفى الخنوسي

كشفت الأبحاث والحفريات التي أجريت بالبلاد التونسية في السنوات الأخيرة عن أهمية عديد المواقع الأثرية التي تجاهلتها تماما النصوص التاريخية أو لم تشر إليها الا عريضيا وبصورة مقتضبة. ومن بين هذه المواقع نجد موقع شمتو الذي يقع شمال غربي البلاد قرب مدينة جندوبة بمنطقة عرفت منذ القديم بثروتها الفلاحية وانتاجها الزراعي. والباحث الذي يرغب في التعرف على تاريخ هذا الموقع ويرجع إلى النصوص التاريخية لا يجد من المعلومات سوى القليل الذي لا يشفي الغليل ولا ينير السبيل. لكن بفضل البقايا الأثرية تبيّن أن لهذه المدينة تاريخ طويل يزيد عن الخمسة عشر قرنا. فلقد بيّنت الأبحاث التي تمت حتى الآن ان مدينة شمتو هي بربرية الأصل وأن تأسيسها قد سبق القرن الرابع قبل الميلاد. كما اثبتت هذه الأبحاث ان المدينة سرعان ما أصبحت ذات شأن مثلما يتجلى ذلك من خلال المقبرة النوميدية التي تم العثور عليها تحت مستوى الفروم (الساحة العمومية) الروماني ومن خلال المعبد الذي شيّد في النصف الثاني من القرن الثاني قبل الميلاد فوق الهضبة الجنوبية من الهضاب الثلاث التي امتدت بسفحها المدينة. ولقد استعملت لبناء هذا المعلم مادة محلّية عرفت فيما بعد رواجا كبيرا وانتشارا واسعا ونعني بذلك الرخام المتكونة منه هضاب شتمو والذي سماه الرومان المرمر النوميدي (Marmor numidicum) فبانتصاب الاحتلال الروماني في المنطقة سنة 46 قبل الميلاد بدا استغلال هذا الرخام على نطاق واسع وتصديره إلى أهم أنحاء الامبراطورية الرومانية. ولم يقتصر العمل بمقاطع شمتو على استخراج الرخام وتصديره فقط بل تعدى ذلك إلى مرحلة صقله ونحته على عين المكان لصنع أواني وتماثيل صغيرة وغيرها من الأشياء. ولقد نجم عن مختلف الأنشطة نمو أكبر للمدينة التي اتسعت رقعتها وشيّدت بها المباني المعهودة في كل مدينة رومانية مثل الحمامات العمومية والمسرح وملعب المصارعة وأصبحت بذلك تضاهي أهم المدن التونسية في العهد. وتواصلت الحياة بشمتو إلى حوالي القرن الثاني عشر ميلادي/القرن السادس هجري.

ولئن بقيت معرفتنا للفترتين البربرية والاسلامية اللتين مرت بهما المدينة مقتصرة على ما تجود به علينا المخلفات الأثرية، فان معرفتنا لتاريخ شمتو في العهد الروماني قد وجدت في

النقائش خير مكمل للمعلومات التي تمدنا بها الآثار. فلقد تم العثور إلى حد الآن بهذا الموقع على مجموعة من النقائش مكتوبة باللغة اللاتينية يفوق عددها المائتين منها حوالي ثلاثين نقيشة جديدة لم تنشر بعد. يبدو هذا العدد ضئيل نسبيا بالمقارنة مع مجموعة النقائش التي وفرتها مواقع مثل قرطاج أو دقة لكنه يمثل في الواقع ذخيرة لا تعوض بفضل المعلومات التي يفيدنا بها والمعطيات التي يمدنا بها. فهو اذن جزء لا يستهان به مما يمكن تسميته بأرشيف شمتو في العهد الروماني.

والمعلومات التي نستمدها من نقائش شمتو عديدة ومتنوعة تمس بأغلب جوانب حياة المدينة في العهد الروماني. وفيما يلي نقتصر على استعراض تلك التي لها صلة باسم المدينة وبسكانها وبحياتها الدينية.

1 ـ اسم المدنية :

مدتنا النقيشة C.I.L, VIII 14612 باسم شمتو الكامل والرسمي في العهد الروماني. فلقد كانت هذه المدينة تدعى :

Colonia Iulia Augusta Numidica Simitthus أي مستوطنة شمتو اليولية الاغسطية النوميدية. ويستنتج من هذه التسمية انها مستوطنة احدثها الامراطور **اكطافيوس اغسطس** (Octave Auguste) فيما بين سنتي 27 قبل الميلاد و14 ميلادي أي خلال المدة الفاصلة بين سنة تلقيبه باغسطس من طرف مجلس الشيوخ وسنة وفاته. وتجدر الملاحظة هنا اني اختلف مع ما ذهب إليه بعض الباحثين الذين تسرعوا في تعميم النتائج التي توصل إليها P. Salama عندما قام بدراسة المستوطنات اليولية الاغسطية بالغرب الجزائري وتمكن من تحديد تاريخ احداثها بين سنتي 27 و25 قبل الميلاد واغتبروا ان احداث مستوطنة شمتو قد تم في نفس هذه الفترة. فالمتمعن فيما كتبه Salama يدرك انه لا ينطبق الا على المستوطنات التي اسسها الامبراطور **اكطافيوس اغسطس** بمرور طانية الملقبة بالقيصرية دون سواها.

2 ـ السكان :

تكاد لا تعرف شيئا عن سكان شمتو في الفترة البربرية. فالمعلومات القليلة التي لدينا الآن تقتصر على تلك التي مدتنا بها دراسة وتحاليل اليهاكل العظيمة التي عثر عليها بالمقبرة النوميدية. اما سكان المدينة في العهد الروماني فمعرفتنا لهم أحسن بكثير بفضل ما تفيدنا به النقائش من المعلومات. فهي تفيدنا مثلا أن هؤلاء السكان كانوا متكونين من ثلاث فئات مختلفة الأصل.

فئة تنم اسماؤها عن أصل ايطالي مثل :

سلالات :

Agii
Antonii
Aufidii
Ajranii
Cluentii
Gurgilii
Granii
Herennii
Rabirii
Vettii

ويبدو ان بعض هذه العائلات قد حلّت بشمتو قبل احداث المستوطنة وذلك للاتجار في الرخام الذي بدا يروق أكثر فأكثر لاعيان واغنياء روما. اما البقية فهي من قدماء العساكر الذين ملكهم الامبراطور أراضي بمنطقة شمتو عند تأسيس المستوطنة.

فئة تنم اسماؤها عن أصل افريقي مثل عائلات :

Aelii
Aemillii
Caecilii
Calpurnii
Domitii
Iulii
Sallustii

وأغلب مؤسسي هذه السلالات هم من قدماء العساكر الذين عملوا في صفوف الجيش الروماني ومنحوا المواطنة الرومانية عند انهاء الخدمة العسكرية كمكافاءة لولائهم لروما. أما البقية فليس من المستبعد أن يكونوا من سكان المدينة الاصليين الذين حصلوا على المواطنة الرومانية لسبب من الأسباب.

اما الفئة الثالثة التي تثبت النقائش وجودها فهي فئة تنم اسماؤها عن أصل من شرقي الامبراطورية الرومانية مثل :

Agathias
Alcetas
Alexandria
Aspapias
Athenodorus

وإلى غير ذلك... وتجدر الملاحظة ان جل افراد هذه الفئة، ان لم نقل كلهم، هم عبيدا أو موالي سواء للامبراطور أو لبعض الخواص الأثرياء.

ولقد عرف افراد هذه الفئات الثلاث حظوظا مختلفة لم تكن مرتبطة دائما بالعرق أو بالوضعية القانونية. فلقد شكلت فئة المستوطنين من أصل ايطالي شبه ارستقراطية مسكت بزمام الأمور وتولت مهمة تسيير شؤون المستوطنة. وافرزت هذه الفئة عن أول ساكن من شمتو نال شرف السهر على عبادة الأباطرة نيابة عن مقاطعة افريقيا جمعاء وكان ذلك الشرف من نصيب C. Otidius Iovinus الذي انتخب كاهن مقاطعة افريقيا بين سنتي 109 و111 ميلادي مثلما تفيدنا بذلك النقيشة C.I.L, VIII, 14611. وأفرزت هذه الفئة أيضا عن أول من ارتقى إلى طبقة الشيوخ من أهالي شمتو.

أما فئة المستوطنين من أصل افريقي فلقد ساهمت هي أيضا في تسيير شؤون المدينة وشغل بعض افرادها مناصبا مرموقة مثل **Sextus Calpurniusj Aponianus** الذي تفيدنا النقيشة A.E., 1955 n°125 بانه كان : Flamen Augusti perpetuus, divi Severi socerdos, omnibus honoribus functus أي انه كان كاهن عبادة الأباطرة وقديس عبادة روح الامبراطور سبتميوس سفروس كما انه تقلد كل المناصب البلدية.

لكن هذه الارستقراطية البلدية كان عليها أن تقرأ حسابا لبعض خسيسي الأصل والذين كانت لهم مكانة مرموقة بحكم المناصب الهامة التي يشغلونها أو بحكم الثروات المحترمة التي تمكنوا من جمعها ونعني بذلك مديري مقاطع الرخام أمثال :

Primus Aug (usti) lib (ertus) proc (urator) m (armorum) n (umidicorum) الذي اهدى مذبحا مثلما تفيدنا بذلك النقيشة C.I.L, VIII, 14552 و **Amyrus Aug (usti) lib (ertus) proc (urator) m (armorum) n (umidicorum)** الذي قام بتوسيع معبد الاله **سترنوس** في بداية القرن الثالث ميلادي مثلما يستنتج من نقيشة جديدة لم تنشر بعد.

ونعني أيضا بعض العبيد أمثال :

Calpata Aug (usti) n (ostri) uerna disp (ensator) m (armorum) n (umidicorum)

الذي عرفتنا به نقيشه جديدة هي الآن بصدد النشر والذي مكنته ثروته من بناء ضريح فخم لايواء رفات احدى قريباته تدعى **Alexandria**

3 ـ الحياة الدينية :

عاشت شمتو في العهد الروماني حياة دينية زاخرة ومتنوعة. هذا ما تفيدنا به عدة نقائش عثر عليها بالموقع والتي تحتوي على أسماء آلهة متعددة حظيت بعبادة من طرف سكان

المستوطنة وتعرفنا باسماء بعض الكهنة الذين تولوا مهمة الاشراف على طقوس مختلف هذه العبادات. ويمكن تصنيف هذه الآلهة المتعددة إلى أربع مجموعات.

أ ـ الآلهة الافريقية :

تضم هذه المجموعة الالاه **سترنوس** والربة **يونوكيلستيس** وهما يعتبران من كبار آلهة افريقيا في العهدين البوني والروماني. كما تنتمي اليها عدة آلهة ثانوية ذات اشعاع جهوي أو محلي فقط مثل : **Dii Mauri, Genius Montis, Locus Sanctus.**

ب ـ الآلهة الاغريقية الرومانية :

حظيت عدة آلهة اغريقية رومانية بعبادة من قبل اهالي شمتو. ولقد امتدنا النقائش إلى حد الآن باسماء الآلهة التالية :

جبتار Jupiter
مارس Mars
مركور Mercure
هرقل Hercule بلوتو Pluton

ج ـ عبادة الأباطرة :

حضي الأباطرة بعبادة رسمية ومنظمة من قبل سكان مستوطنة شمتو. وتفيدنا النقائش ان مهمة الاشراف على طقوس هذه العبادة كانت تعتبر من أبرز المناصب الذي كان أعيان المدينة يطمحون إليها. ويكون الشرف أعظم عندما ينتخب أحدهم ويتحول إلى قرطاج ويتولى السهر على طقوس هذه العبادة مدة سنة كاملة باسم مقاطعة افريقيا جمعا. مثلما حصل لـ : (C. Otidius Aponianus).

د ـ الديانات الشرقية :

الديانات الشرقية التي تثبت النقائش وجودها بشمتو في العهد الروماني هي عبارة «مِتْرا» (Mithra) والديانات المسيحية.